يوم في خزانة

عيسى اسكندر المعلوف

بقلم الدكتور بشر فارس

هذا عالم آخر من علماء لبنان [1] خرّج التلامذة ودرّب الطلبة الى جانب التأليف والتصنيف زهاء خمسين سنة في همة تحهل القعود وبدراية واسعة . وهو أبو شفيق المعلوف صاحب ديوان « عبقر » ، أبو المرحوم فوزي صاحب « شاعر في طيارة » هذا القصيد الفريد الباقي على الزمن.

زرته في زحلة في طريقي الى دمشق أول الخريف الماضي ، ولبثت بداره يوماً أتسفح مخطوطات فيها النادر والنفيس، بعضها من قلمه والآخر من اقلام من تقدم . ولا يسعني الاّ أن أنوّه بما وقفني ، ولعلّ في ذلك متعة او فائدة لقارىء « المقتطف » . على ان للاستاذ عيسى اسكندر المعلوف تواليف مطبوعة ، لا أتمهل عندها ولا أذكرها الاّ كتاباً هو « دوالي القطوف في تاريخ بني المعلوف »[2] . وقدر هذا الكتاب في عرضه لتاريخ حَوران وذكر أسرها ولا سيما الغساسنة ، وفي اشاراته الى تاريخ لبنان وفلسطين مع تدوين طائفة كبيرة من الحوادث والوقائع بجنب الشؤون العمرانية والفوائد الجغرافية ثم العادات والاخلاق

واما المخطوطات فغير قليلة . واليك التي لفتت لموضوعاتها : —

(١) — في اللغة (القصيحة والعامية)

١ — « فهرس شرح الأمثال العامية العربية » وهو يشمل أربعة عشر الف مثل تجري على ألسنة الناس في لبنان وسورية وفلسطين وما يجاورها . وميزة الكتاب ان المؤلف يرد

---

(١) انظر مقالاً في العدد السابق من المقتطف (مايو ١٩٤٢) : « التنبيه الى كتاب بريد جميع » للكتب فيليب فوزي . وهو كتاب لا يزال مخطوطاً كما أخبرتك : وفي مستدركه هذا على هذا القول : ص ٤٣٢ هامش ١ س ١ ، اقرأ : الزاي بدلاً من الواو — ص ٤٣٣ س ١٣ ، اقرأ : دوما بدلاً من روما — ص ٤٣٥ س ١٤ ، اقرأ : فتكلم على ، بدلاً من فتكلم عن — ص ٤٣٤ هامش ٢ س ٢ من تحت ، رد بعد ص ٧٦ : « كذلك طبعة شيخو، بيروت ١٩٢٣ ص ٥١ س ٢٢ — ص ٤٣٦ س ١٨ ، اقرأ : الكتاب المخطوط ، بدلاً من المكتاب — ص ١٩ : اقرأ : واكبري له ، بدلاً من اكبري — هامش ١ السطر الاخير ، اقرأ : انظر ص ٣٥ — ٤٦ و ١٧٣ — ١٨٩ خاصة ، بدلاً من ص ١١٧ — ٢٦٦ .

(٢) طبع في بعبدا (لبنان) سنة ١٩٠٧—١٩٠٨

المثل العامي عما قيل في معناه في الفصحى ، نحو ذلك هذا المثل العامي : « البرمائي بيحلّ شاشي القاضي » . ثم يلي المثلَ قول الشاعر :

فبرطل ان أوردتَ الحال يمشي لا يمشي سوى خفّ البرطل

ثم قول سليمان البستاني ناقل الالياذة ، وقد نظم معنىً للفُرس :

بعشر خيارات لقاضيك رشوة تنبت في البطيخ عشر مزارع

٢ — « معجم الالفاظ العامية والدخيلة » في سورية ولبنان وفلسطين ، مع رد اللفظ الى اصله العربي او الاعجمي من جهة الاشتقاق او التعريب ، وايراد ما وضع العرب او المؤلف نفسه للفظ ان كان اعجميًّا . ولهذا المعجم مقدمة في اللغة العامية وآدابها وفنونها

(ب) — في الأدب

١ — « شحذ القريحة في المقتطفات البليغة الفصيحة » في مجلدين . الاول في الشعر والشاعر والفنون الشعرية ، والثاني في المعاني الشعرية من السماء حتى الأرض مع ذكر العلوم والاختراعات . وفي المجلد الاول مباحث في الشعر عند الامم العربية والغربية ، ومن الفصول: طبقات الشعراء عند العرب وتحليل اشعارهم ، شعراء الاعاجم شرقاً وغرباً ، الشاعر وآدابه ، الحس والخيال والمعاني ، الموازنة بين الشعر العربي في الشرق وفي الغرب ، في فن قرض الشعر ، اكتساب ملكة النظم ، شياطين الشعر ، اختلاف خيالات الشعراء . كل ذلك مستخرج من أقوال العرب وآرائهم وأشعارهم . ثم التقليد والتجديد ، الروية والارتجال ، الذكاء والعبقرية والنبوغ ، ثم الفنون الشعرية : التشطير والتخميس والتسديس الى التعشير ، الموشح وكيف يكتب برسوم على اشكال هندسية مع امثلة مختلفة ، التاريخ الشعري الى آخرما هنالك من الاجازات والالغاز وغرائب القوافي والاشعار والاوزان ، ثم الترجمة[1] . وأما المجلد الثاني فيتضمن المعاني الشعرية مرتبة على تحدرها من السماء حتى الارض . وفيه طرائف وغرائب من الوصف

على أني وقفت في مطاوي هذا الكتاب الضخم على بعض مسائل أخشى أن تكون معروفة وأخرى أظنها مطروقة . فلعل المؤلف يطرحها عند المراجعة والتهذيب ، أو يجتزىء بالاشارة اليها

٢ — «تكملة ديوان الامام الشافعي » الذي طبع منه مختارات في القاهرة (سنة ١٣٢١هـ) .

(١) ومن ملح هذا الباب الاعجم ما نظمه الشيخ ابراهيم الحوراني (المتوفى ببيروت سنة ١٩١٦) مترجماً معنى لشاعر الروسي بوشكين :

قال لذهب اهديا ممتكي قال الفولاذ آه الذهب
قال العتيان آه الشوق قال الفولاذ آه الذهب

وقد رجع المعلوف الى مخطوطات نادرة ، في مقدمتها «مناقب الامام الشافعي» للمستقلاني[1]

٣ — « مجموع الدواوين الفقودة » : هي دواوين بحث عنها الاستاذ الجماعة مخطوطات كثيرة متفرقة في الخزانات العامة ، فجمع منها قصائد ومقطوعات لشعراء مجهولين او مهملين كأمثال :

السيد احمد البربير الدمياطي البيروتي وهو من أدباء مفتتح القرن التاسع عشر . فقد عثر له المصنف على أكثر من الفي بيت ، ومن قوله في الشيب :

خيوط الشيب قد مدّت بغودي ومدّ خيوطها قصر الحياة
أجادت غزلها أيدي الليالي لتنسجه غداً كفناً لذاتي

وملحم الشميل اللبناني ، وشقيقه امين الشميل ، والسيد عبد اللطيف فتح الله مفتي بيروت ، والشيخ راجي اليازجي شقيق الشيخ ناصيف ، ومحمود بك ابن خليل بك العظم الدمشقي ، والسيد علوان الغُرّ قاضي بيروت ، والسيد أحمد الغر مفتي بيروت ، والقس حنانيا الشير الزوقي ، والحاج حسين بيهم البيروتي . وكل هؤلاء من أدباء القرن التاسع عشر

٤ — « ذيل شعراء النصرانية » وفيه أتم المعلوف ما كان نشره الأب شيخو

٥ — « تبديد الأوجال في فن الأزجال » وهو مجموعة من الأزجال القديمة والحديثة في سورية ولبنان ومصر والعراق وسائر البلدان العربية[2]

وقد استخرج المعلوف مواد هذه المجموعة من عدة مخطوطات محفوظة في خزانته . واني أعلم ان المستشرق ليسرف Lecerf وصفها ورجع اليها في بحثه المستفيض في الأدب العامي العربي[3] . ومن مطالعي هذا البحث يتبين لك ان الاستاذ المعلوف من الأثبات في فن الزجل وأدبه وتاريخه

---

(١) سرد بروكلمن المستشرق الملامة في كتابه القيم « تاريخ الآداب العربية » (التكملة ليدن ١٩٣٧ ج ١ ص ٣٠٤) « مناقب » أخرى للشافعي وتواليف ضمت من أقواله واشعاره . ولعل الاستاذ المعلوف يراجع هذا الفصل ، فقد يجد فيه مصادر جديدة

(٢) واليك مثلا زجلا مصرياً للسيد حسين بن أحمد الكيلاني :

يلله أعدوني بطوى يا مسعين هذا الدار مستحيل عغياب الساعتين
أعرس وما مر ندايت يا سلام هب ليلة وإياك لقاضي العشيين
قل تعني بالعشق هين عندك شيوه قلت له وهات صدوك والبرود
وخلك تلبود مع حر الحدود هدي شيوخي في حديدك ظاهرين ..

(٣) J. Lecerf, "Littérature Dialectale et Renaissance arabe moderne" Bulletin d'Etudes Orientales (Damas) année 1933, tome 3 p. 121 et suivantes « نشرة الدراسات الشرقية » (دمشق)

(ج ١ — التاريخ

١ — «مناوص الدرر في أدباء القرن التاسع عشر» في مجلد كبير يبلغ الف صفحة. ترجم فيه المؤلف لعدد وافر من الأدباء الذين اهملهم غيره او زاد على ما جاء عند غيره. والمترجمون بين عرب وافرنج، وهؤلاء ممن أقام ببلاد العربية أو ساح فيها مثل الكولونل تشرتشل بك الذي توفي في ناحية «سوق الغرب» بلبنان، وهو عم المستر تشرتشل رجل الساعة في انكلترة، ومثل رتشارد وُد Wood الذي قصد الى لبنان سنة ١٨٣١ ليخرج منه ابرهيم باشا[1]

٢ — «تاريخ آل اليازجي» في مجلدين. وقد دفعه المؤلف الى مطبعة دير المخلّص بقرب مدينة صيدا

٣ — «الاخبار المروية في تاريخ الاسر الشرقية». وهو سفر شامل «لتواريخ الاسر في لبنان وسورية وفلسطين والعراق والعجم وآسية الصغرى ومصر وبلاد العرب والمغرب وما اليها وفي المهاجر. وهذه الاسر من جميع المذاهب المسيحية والاسلامية والاسرائيلية على اختلاف طوائفها ومناشئها ومواطنها وأنسابها واسمائها أصولاً وفروعاً، ثم ذكر حوادثها وتراجم سلاطينها الخ». وقد بلغ هذا السفر حتى ٢٤ الخطى ١٩٤١ أربعة عشر مجلداً كبيراً

وأما مصادر الكتاب فبين المنقولة سماعاً والمتعقَّبة في بطون المخطوطات والمطبوعات مثل كتب الأنساب وما يأخذ اخذها من الشجرات والعناقيد، ومثل الحجج والسجلات أو صحائف الخراج والخرج والكنانيش والتذاكر والسفائن. فهو استخراج للمخبآت. والكتاب غير مرتب بعدُ على حروف المعجم كما هو شأن تواليف السمعاني والقلقشندي وغيرهما، بل هو في طور الجمع والتدوين وان كان صاحبهُ يعالجهُ منذ ثلاث واربعين سنة، فالابواب لا تزال منتوحة لقبول مواد جديدة أو متممة. ولكن ثمة مصادر كثيرة وافية يهتدي بها المطالع الى اسماء الاسر وأسامي الاماكن وعيون الناس من أهل سياسة أو أدب أو علم

وقد اخبرني المؤلف أنهُ كتب الى اعقاب تلك الاسر يسألهم عما لديهم من الأخبار فاطلعوا أو أهملوا الاّ أقلهم. ولما كتب اليهم يدعوهم الى مشاركته في اخراج الكتاب ردَّ بعضهم على هذا النحو: «أوسل الينا تاريخ اسرتنا، فان كان فيهِ لنا فائدة اشتركنا». واما سائر الاعقاب فأبوا الاّ الصمت ... هذا هو الشرق!

***

(١) وفي الانكليزية خاصة نوادر في البلاد، ثم ان للاول ثلاثة كتب مفيدة: الاول، The Druzes and the Maronites : والثاني Ten Years Residence in Lebanon والثالث للامير عبد القادر الجزائري

تلك هي المخطوطات التي من قلم الاستاذ المعلوف ؛ ولعلّ أحسنها شأناً يخرج عاجلاً . ثم إن في خزانة هذا العالم الدائب في العمل مخطوطات أحب أن أشير إلى بعض ما له شأن

١ — « مجموعة رسائل » تاريخ نسخها سنة ٦٤٤ هـ ، لكبار الكتاب مثل ابن بصاقة وابن الأثير صاحب « المثل السائر » في مراسلة الملوك وبعض هذه الرسائل في الحروب الصليبية

٢ — « مجموعة من كتب الدروز » وهي نحو ١٥ كتاباً . فيها اسرار هذه الطائفة ، وأناشيدها ، واخبار عن اعيانها ، وشؤون في معاملتها لسائر الطوائف . وطي هذه المجموعة مقالات ادبية للسيد عبدالله التنوخي الدرزي

٣ — « تاريخ نابليون الاول » لنقولا الترك اللبناني (١٧٦٣—١٨٢٨) . وفائدة هذا التاريخ انهُ يشتمل على كثير من المنشورات والرسائل الخاصة بحملة نابليون على مصر [1]

٤ — « تاريخ مصر » لخليل الخوري الشاعر (١٨٣٦ — ١٨٧٥) صاحب جريدة « حديقة الاخبار » البيروتية ، ألفه باشارة من سعيد باشا [2]

٥ — « جامع الفنون وسلوة المحزون » تأليف نجم الدين احمد بن حمدان بن شبيب الحراني الحنبلي المتوفي سنة ٦٩٥ هـ (؟) . فيه مباحث مختلفة ، فهو أشبه بدائرة معارف في الجغرافية وما اليها خاصة [3]

٦ — « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » للمرادي المتوفي سنة ١٢٠٦ هـ . ومعلوم ان هذا الكتاب طبع في أربعة مجلدات (١٢٩١ و ١٣٠١هـ) . الآن ميزة نسخة

---

(١) جاء في « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » لشيخو ، بيروت ١٩٢٤ ، ج ١ ص٢٣—٢٤ : « لنقولا الترك : تاريخ الامبراطور نابليون من سنة وفاة الملك لويس السادس عشر الى موت نابليون سنة ١٨٢١ في نحو ٤٥٠ صفحة ، كتبه بانصاف وحسن ذوق مع تعريف أسباب الحوادث وسوابقها والحكم في جيدها وسيئها . وهذا الكتاب قد طبع نصفه الاول في باريس سنة ١٨٣٩ بهمة المستر ديجرنج Desgranges الذي نقله الى الفرنساوية وألحقه بعدة مخطوطات وهو يحتوي تاريخ نابليون الى آخر سنة مصر سنة ١٨٠١ ، واما النصف الثاني فلا يزال مخطوطاً » . وهذا لم يذكر شيخو في خزانة المخطوط

(٢) تجد ترجمة خليل الخوري في « مشاهير الشرق » لزيدان القاهرة ١٩١١ ج ٢ ص ١٤٠ وما يليه . وما أثبته زيدان : « ولم نقف على ذلك الكتاب (يعني « تاريخ مصر ») ولا سمعنا به قبل البحث عن ترجمة هذا الشيخ »

(٣) في « تاريخ الآداب العربية » لبروكلمن ط سنة ١٨٩٨ ج ١ ص ٥١٢ و ج ٢ ص ١٣٠ ذُكر هذا الكتاب بعنوانه ونسب الى اثنين اسمهما واحد : الاول كمال وشاعر مصري توفي سنة ٦٩٥ هـ ، والثاني كان في مصر سنة ٧٣٢ هـ . وفي « تكملة » هذا التاريخ Suppl ج ١ ص ١٦١ — ١٦٢ ، استدرك بروكلمن فوقف عند الثاني ، ووصف الكتاب فقال ان فيه سرداً لعجائب مصر جمعه على نحو ما جاء في كتاب « جواهر البحور . . . » لابراهيم بن وصيف شاه . وقد أرشد بروكلمن الى الخزانات التي تحفظ هذا المخطوط ، وهي دار الكتب الوطنية بباريس والمتحف البريطاني وغيرهما . هذا وفي وسع الاستاذ المعلوف ان يراجع ما ورد في كتاب بروكلمن للتحقيق والتثبت ولا سيما انه أشار الى نسخ أخرى من هذا المخطوط . نسخة أخرى في باريس فقط

المعروف انها بخط ابي الطيب الخطيب الدمشقي تلميذ الفرادي ، وان الفرادي نفسه وقف عليها وضبطها ، ففيها فوائد وتصحيحات لا غنى عنها لمراجعة نوعها . وردت في النسخة المطبوعة

٧ — « ديوان » لعبد الغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ هـ في « المراسلات » . وهو غير «ديوان الحقائق ومجموع الرقائق » المطبوع[1] . وفي هذه « المراسلات » فوائد كثيرة عن دمشق وغيرها من المدن الاسلامية مع ذكر اسماء العلماء والصناع وعرض شيء من شؤونهم

ثم ان هنالك مخطوطات يحسن التنويه بها لما يزينها من التراويق

١ — « كشف الهموم والكرب في شرح آلة الطرب » للشهدي . فيه صور لطيفة للآلات والعازفين ، بينها صورة جارية هارون الرشيد والكمان في يدها[2]

٢ — « كتب في الفلك » لقاضي زاده الرومي من القرن التاسع الهجري

٣ — « كتاب جر الاثقال » لهيرون الفيلسوف اليوناني (الاسكندري) ، نقله قسطا ابن لوقا البعلي[3] والمخطوط من القرن السادس عشر الميلادي

٤ — « رسالة في الشطرنج والقتال وصف العساكر بطريقة التناصيب الشطرنجية » لاحمد ابن حجلة الخلصاني المتوفى سنة ٧٧٩ هـ[4]

٥ — « حياة الحيوان » للدميري المصري . وهو مطبوع ، لا مخطوط ، طبع في فاس سنة ١٢٨٥ ، مع صور جميع الحيوانات المذكورة في الكتاب (طبعة نادرة)

***

هذا بعض ما انتهى اليَّ في ذلك اليوم الذي قضيته متصفحاً ، فاحصاً ، من حولي طرائف وضنائن ، بين يدي شيخ جليل حبس حياته على طلب العلم ونفع الناس به . فما أظنني أضعت يومي ، ومن قبل قال الحسن البصري : « الدنيا كلها ظلمة الا مجالس العلماء »

---

(١) انظر طبعاته في « معجم المطبوعات العربية ... » لسركيس ص ١٨٣٣

(٢) هذا المخطوط في دار الكتب المصرية أيضاً ، ولكن المؤلف (وهو الشهدي كما في مخطوط المطوف) غير مذكور ، ورقم المخطوط عندنا : ١ — فنون جميلة ، ونجد وصفه في « نشرة بأسماء كتب الموسيقى والغناء ومؤلفيها المحفوظة بدار الكتب » طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢ ص ٢٣ . وهذا المخطوط مأخوذ بالتصوير الشمسي عن نسخة خطية في مكتبة طوب قبو سراي بالآستانة . هذا وأردت ان أنظر في هذه النسخة المحفوظة في دار الكتب عندنا لأختبر القارىء هذا الزاويق التي تزين نسخة المطوف . ولكن هذه النسخة من المخطوطات التي جعلتها الدار في الخزائن حذراً من غارات هذه الحرب . على ان « النشرة » المذكورة تنوه بأن في النسخة تراويق

(٣) هذا المخطوط في خزانة ليدن والقاهرة أيضاً واسمه « شيل أثقال » . وقد طبع مع بحث وترجمة في المجلات الفرنسية والايطالية (راجع « تاريخ الآداب العربية » لبروكلمن ، ط سنة ١٨٩٨ ج ١ ص ٣٠٤)

(٤) لم أجد ذكراً لهذا الكتاب في « تاريخ ... » بروكلمن ولا في « تكملته » . على أني لا أجزم ، وذلك ان هذا التاريخ الجامع لا يزال مفتقراً الى مصادر وافية لاسماء المؤلفين وأسامي الكتب